المجلد 01 العدد 01 السنة 2019م ص 181إلى 200 ISSN 2773-2940 EISSN ....-....

تناوب حروف الجرّ في القرآن الكريم و أثره في تعدد المعنى

دراسة في آيات من خلال تفسير الألوسي

Alternation of prepositions in the Holy Quran and its effect on multiple meanings

A study in verses through the interpretation of Al-Alusi

د. عيسى تومي *

المدرسة العليا للأساتذة بورقلة. الجزائر aissa.toumi2012@gmail.com

تاريخ الإرسال	2019/01/30م	تاريخ القبول	2019/02/27م

ملخص

حروف الجرّ من أكثر حروف المعاني التي اهتم بدراستها النحاة ومعربو القرآن والمفسرون، نظرا لأهميتها وكثرة دورانها في الكلام، إذ إنّ معرفة معاني هذه الحروف مما يتوقف عليه فهم الكلام العربي ذلك أنّ الأسماء والأفعال تظلّ مفتقرة إلى الدلالة داخل التركيب ما لم ترتبط فيما بينها بهذه الحروف، وإنّ بتغيير الحرف يتغيّر المعنى، كما أنّ الاختلاف في فهم دلالة الحرف الواحد منها في سياقه يؤدي إلى الاختلاف في معنى الكلام الذي يرد فيه.

الكلمات المفتاحية: التناوب؛حروف الجرّ؛ المفسرون؛تعدد المعنى.

Abstract

Prepositions are among the most important semantic letters studied by grammarians and interpreters due to its importance and use in speech. The understanding of the Arabic speech depends on the meaning of these letters because the names and verbs remain lacking significance within the composition unless they are related with each other. However, by changing the letter, the meaning changes; just as The difference in understanding the meaning of a single letter in its context leads to a difference in the meaning of the speech in which it is contained.

Keywords : Alternation ;Prepositions ; Interpreters ; Multi-meaning.

* المؤلف المرسل

1.مقدمة

عني النحاة والمفسرون الأوائل بدراسة حروف المعاني؛ ومنها حروف الجرّ فشرحوا معانيها وفصلوا دقائقها باعتبارها مدخلا حيويا إلى النصوص، وجانبا بارزا في تحديد اتجاهات الآيات، وسبيلا دقيقا لبيان الأحكام وأسرار الجمال ومكامن التأثير. وقد نما العلم بهذه الحروف وترعرع في أحضان التفسير، ووجد نفسه في تحليلات المفسرين وعباراتهم. وكانت غايته بيان معاني التنزيل الدقيقة وتذوق أسرار الجمال، وقد حددت هذه الغاية طبيعة العلم واتجاهاته، فهو علم يبحث في معاني هذه الحروف وظلالها، ويكشف أسرار البيان ولطائف التعبير، ويميط اللثام عن المعاني الخفية في لغة القرآن الكريم. (محمود أحمد الصغير، 2001، ص32)

وقد شعر المفسرون بأهمية العلم بهذه الحروف والأدوات فعدوها وسيلة من وسائل التفسير لا غنى للمفسر عنها، إذا هو أراد أن يغوص في لجج التفسير. يقول السيوطي (ت911هـ) في معرفة معاني الأدوات التي يحتاج إليها المفسر: "اعلم أنّ معرفة ذلك من المهمات المطلوبة لاختلاف مواقعها، ولهذا يختلف الكلام والاستنباط بحسبها كما في قوله تعالى: ﴿**وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ**﴾. (سبأ،24) فاستعملت (على) في جانب الحقّ، و(في) في جانب الباطل؛ لأنّ صاحب الحقّ كأنه مستعلٍ يصرّف نظره كيف يشاء، وصاحب الباطل كأنه منغمس في ظلام منخفض لا يدري أين يتوجّه.

ومما تجدر الإشارة إليه في هذا المقام أنّ مسألة مجيء حروف الجرّ نائبة عن بعضها في الكلام هي من المسائل المختلف فيها بين النحاة، فمذهب الكوفيين وبعض من وافقهم من البصريين أنّ حروف الجرّ يجوز أن ينوب بعضها عن بعض. فقد تأتي (الباء) بمعنى (على) كما في قوله تعالى: ﴿**وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ...**﴾. (آل عمران،75). أي: على قنطار. وقد تأتي (الباء) بمعنى

(عن) نحو قوله تعالى: ﴿**سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَ اقِعٍ**﴾ (المعارج،1) أي: عن عذاب واقع. وتأتي (مِن) بمعنى (على) كما في قوله تعالى: ﴿**وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا**﴾. (الأنبياء، 77). وقد تأتي (على) بمعنى (في) كقوله تعالى: ﴿**وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا**﴾. (القصص،15). وقد تأتي بمعنى (عن) كما في قول الشاعر:

إذا رضيت عليّ بنو قُشيرٍ ... لعمرُ اللهِ أعجبني رضَاها.

ونحو هذا كثير في كلام العرب الفصيح وفي القرآن الكريم.

وأما مذهب جمهور البصريين أنّ حروف الجرّ لا ينوب بعضها عن بعض إلا شذوذا، أمّا قياسا فلا. وما أوهم ذلك فهو مُؤول، إمّا على التّضمين أو على المجاز كما في قوله تعالى: ﴿**وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ**﴾. (طه، 71)

فقد ذهب الكوفيون إلى أنّ (في) بمعنى (على)، وذهب البصريون إلى أنها ليست بمعنى (على)، ولكن شُبه المصلوب لتمكنه من الجذع بالحالّ في الشيء أو المظروف فيه وهو من باب المجاز. وإمّا على شذوذ إنابة كلمة عن أخرى. وقد قالوا: لا تصح إنابة حرف عن حرف كما لا تنوب حروف النصب والجزم عن بعضها. (ابن هشام، دت، ص129، والمرادي، 1992، ص24، 26، وفاضل السامرائي، 2000، ص6، 7)

وفيما يلي بيان لبعض المواضع التي جاءت فيها حروف الجرّ على غير معناها الأصلي إمّا بالنيابة عن بعضها – كما يرى الكوفيون ومن وافقهم- أو على التضمين أو المجاز - كما يراه البصريون - وموقف الإمام الألوسي من المسألة، وبيان ذلك كله في إثراء المعنى وتعدّده.

2. في مجيء حرف الجرّ (الباء) بمعنى (إلى) و(في):

(الباء) من الحروف المختصة بالاسم، تلازمه لعمل الجرّ، وهي ضربان: زائدة وغير زائدة.

فأمّا غير الزائدة – وهي المعنية بالدراسة ههنا – فقد ذكر النحويون لها نحو ثلاثة عشر معنى، أشهرها معنى الإلصاق؛ فهو أصل معانيها، ولم يذكر لها سيبويه – رحمه الله - غيره. فهي عنده للإلصاق والاختلاط، وما اتّسع من هذا في الكلام فهذا أصله. (سيبويه، 1982، ص217، والمرادي، 1992، ص36)

- في قوله تعالى: ﴿**وَقَدْ أَحْسَنَ بِي**﴾. (يوسف،100) يرى بعض المفسرين أنّ (الباء) في هاته الآية الكريمة جاءت بمعنى (إلى) أي: أحسنَ إليّ. (الزمخشري، 1998، ص326) في حين يرى بعضهم أنّ الفعل (أحسن) في هاته الآية قد تضمّن معنى (لطَف) فتعدّى بالباء، أي: لطف بي. (المرادي، 1992، ص 45. والألوسي، دت، ص 59)

وقد ذكر أبو حيان أنّ الأصل في الفعل (أحسن) أن يتعدى بـ (إلى) كما في قوله تعالى: ﴿**وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ**﴾. (القصص، 77)، وقد يتعدى بـ (الباء) نحو قوله تعالى: ﴿**وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا**﴾. (الإسراء 23). كما يقال: أساء إليه وبه. ومنه قول الشاعر:

أسيئي بنا أو أحسني لا ملومة ... لدينا ولا مقلية إن تقلّت. (أبو حيان الأندلسي، 1993م، ص 342)

وقال الزركشي في قوله تعالى: ﴿**وَقَدْ أَحْسَنَ بِي**﴾ فإنه يقال: أحسن بي وإليّ، وهي مختلفة المعاني، وأليقُها بيوسف - عليه السلام - (بي)، لأنه إحسان درج فيه دون أن يقصد الغاية التي صار إليها. (الزركشي، د ت، ص 176)

ويذكر الإمام الألوسي رأيا آخر، وهو أن في الآية مفعولا به محذوفا، والتقدير: (أحسن صُنعه بي)، وعلى هذا تكون (الباء) متعلقة بالمفعول به المحذوف، وفيه حذف المصدر (صُنعه) وإبقاء معموله وهو ممنوع عند البصريين. (الألوسي، دت، ص59)

وقد بيّن الدكتور فاضل السامرائي الفرق بين تعدية الفعل (أحسن) بـ إلى وتعديته بالباء، يقول: ثمة فرق بين (أحسن إليه) و(أحسن به) فإنّ معنى أحسن إليه: قدم إليه إحسانا أو صنع إليه إحسانا، أما (أحسن به) فمعناه: وضع إحسانه به، ومن ذلك أنك تقول: أحسنتَ بهذا الأمر، وأحسنتَ بعملك أي: ألصقت إحسانك بعملك ووضعته به، ولا تقول: أحسنتَ إلى عملك ولا أحسنتَ إلى هذا الأمر إلّا على معنى آخر وهو أنّك قدمت إليه إحسانا وهو معنى مجازي. ولذلك فإنّ الإحسان في (أحسن به) ألصق إذ فيه معنى الرعاية واللطف، فقد قال سبحانه: ﴿**وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ**﴾. (القصص، 77) وقال على لسان نبيه يوسف – عليه السلام -: ﴿**وَقَدْ أَحْسَنَ بِي**﴾. (يوسف، 100) ففي الأولى إحسانٌ عام يشترك فيه سيدنا يوسف وبقية الخلق، أما في الثانية فإحسانٌ خاصٌ مختلف عن الأول وهو ألصق بصاحبه فقد أخرجه من السجن، وبوّأه مكانة عالية وجاء بأهله من البدو، وما إلى ذلك من العناية واللطف الرباني بالنبي الكريم. (فاضل السامرائي، 2000، ص 26، 27) وهو المعنى المستفاد من حرف الباء الذي من معانيه الأصلية معنى الإلصاق.

- في قوله تعالى حكاية عن نبيه نوح عليه السلام: ﴿**قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ. قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾. (الأعراف 60، 61). فالملاحظ في الآيتين الكريمتين مجيء حرف الجرّ (في) في قول قوم نوح ﴿**إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ**﴾ باستعمال (في) الدالة على الظرفية والمصدر الصريح (ضلال) لاعتقادهم بأنه داخلٌ في هذا الضلال المزعوم ومنغمسٌ فيه. بينما جاء بـ(الباء) في رده – عليه السلام - عليهم وبالمصدر الدال على المرّة (ضلالة): ﴿**قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ**﴾ ولم يقل: (ليس فيّ ضلال) كما قالوا، وذلك لينفي عن نفسه لصوق أدنى ضلالة به فضلا عن انغماسه في الضلال كما يدّعون، وهو

المعنى المستفاد من استعماله (الباء) في قوله: ﴿**لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ**﴾ في هاته الآية الكريمة.

وقد بيّن الزمخشري – رحمه الله – ذلك في قوله: "فإن قلت: لمَ قال: ﴿**لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ**﴾ ولم يقل: ضلال كما قالوا؟ قلتُ: الضلالة أخص من الضلال فكانت أبلغ في نفي الضلال عن نفسه، فكأنه قال: ليس بي شيء من الضلال كما لو قيل: ألك تمرٌ؟ فقلتَ: ما لي تمرة". (الزمخشري، 1998، ص367) فلما نفى لصوق أدنى ضلالة عن نفسه – عليه السلام - كان نفي الضلال عنه من باب أولى.

ويُبيّن الإمام الألوسي سبب المجيء بحرف الجرّ (الباء) بدلا من (في) في قوله تعالى على لسان نبيه نوح ـ عليه السلام ـ في قوله: ﴿**يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ**﴾ بأنّه نفي للضلال عن نفسه الكريمة على أبلغ وجه لأنّ التاء في ﴿**ضَلَالَةٌ**﴾ للمرة ومقام المبالغة في الجواب لقولهم الأحمق يقتضي ذلك والوحدة المستفادة منه باعتبار أقل ما ينطلق فيرجع حاصل المعنى: ليس بي أقل قليل من الضلال فضلا عن الضلال المبين... وإنما بالغ ـ عليه السلام ـ في النفي لمبالغتهم في الإثبات حيث جعلوه ـ وحاشاه ـ مستقرا في الضلال المبين. (الألوسي، دت، ص 150، 151)

3. في مجيء حرف الجرّ (على) بمعنى (إلى) و(اللام):

تكون (على) اسما وفعلا وحرفا، فما جاءت فيه اسما قولهم: جئت من عليه، أي: فوقه. كما في قول الشاعر:

عدت من عليه ينفض الطّلّ بعدما ... رأت حاجب الشمس اعتلاه ترفّعا.

وأمّا كونها فعلا فنحو قولك: علا زيدٌ الجبل. وقوله تعالى: ﴿**إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ**﴾. (القصص،4). وإذا كانت حرفا كانت من الحروف العوامل، وعملها الجرّ ومعناها الاستعلاء نحو: جلست على الكرسيّ، وصعدت على البيت... (الرماني، 2005، ص122) وقد جاءت (على) بمعنى (إلى) وبمعنى (اللام)... في مواضع مختلفة من القرآن الكريم، من ذلك:

- قوله تعالى: ﴿**فَرَاغَ إِلَى آلِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ. مَا لَكُمْ لَا تَنْطِقُونَ. فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ**﴾ (الصافات 91، 92، 93) فقد تعدى الفعل (راغ) في الآية الأولى بـ (إلى) الدالة على انتهاء الغاية ﴿**فَرَاغَ إِلَى آلِهَتِهِمْ**﴾، وتعدى في الآية الأخيرة بـ (على) الدالة على الاستعلاء ﴿**فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا**﴾. ولم يأتِ السياق في الآيتين على نمط واحد؛

قال أبو حيان: ﴿**فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ**﴾ أي: أقبل عليهم مستخفيا ضاربا، فهو مصدر في موضع الحال. أو يضربهم ضربا، فهو مصدر فعل محذوف. أو ضُمّن (فراغَ عليهم) معنى (ضربهم). (أبوحيان، 1993، ص 351)

وقال الراغب الأصفهاني: ﴿**فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ**﴾ أي: مال عليهم، وحقيقته طلبٌ بضرب من الروغان، ونبّه بقوله: (على) على معنى الاستيلاء. (الراغب الأصفهاني، 2009، ص273) للدلالة على تمكنه – عليه السلام – من الأصنام وتحطيمها.

وقال الألوسي: ﴿**فَرَاغَ عَلَيْهِمْ**﴾، مال مستعليا عليهم، وقوله تعالى: ﴿**ضَرْبًا**﴾ مصدر لراغ عليهم باعتبار المعنى فإنّ المراد منه ضربهم ضربا، أو لفعل مضمر، هو مع فاعله حال من فاعله، أي: فراغ عليهم يضربهم ضربا، أو هو حال منه على أنه مصدر بمعنى الفاعل أي: ضاربا، أو مفعول له أي: لأجل ضرب. (الألوسي، دت، ص 123)

ولعلّ الحكمة من مجيء حرف الاستعلاء (على) بدل الحرف (إلى) في الآية الكريمة لما في (على) من معنى استيلائه – عليه السلام – على الأصنام وتمكنّه منها وقهرها وهو ينهالُ عليها ضربا وتحطيما، وما كان ذلك المعنى ليتحققّ لو جيء بـ (إلى) كما في الآية التي قبلها.

- في قوله تعالى: ﴿**لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ**﴾. (البقرة، 286) والملاحظ أنّ السياق في الآية الكريمة لم يأت على نسق

واحد (لها ما كسبت ـ ولها ما اكتسبت) أو (عليها ما كسبت ـ وعليها ما اكتسبت) وإنما خالف بين الأداتين في الاستعمال، والسبب في ذلك عند النحاة والمفسرين أنّ (اللام) تأتي مع الخير والنفع غالبا وأنّ (على) تأتي مع الشر والضرّ غالبا. وهذا انطلاقا من معنى (اللام) التي تفيد الاختصاص، والتملّك والاستحقاق. (المرادي، 1992، ص 96) ومن معنى (على) الدالة على الاستيلاء والقهر والاستعلاء.

ويؤكد هذا ـ كذاك ـ قول ابن جني: "... وذلك أنّه قد يستعمل في الأفعال الشاقة المستثقلة؛ على قول من يقول: قد سرنا عشرا وبقيت علينا ليلتان، وقد حفظت القرآن وبقيت عليّ منه سورتان، وقد صمنا عشرين من الشهر وبقي علينا عشرٌ... وإنما اطّردت (على) في الأفعال التي قدمنا ذكرها من حيثُ كانت في الأصل للاستعلاء. فلما كانت هذه الأحوال كُلفا ومشاقّ تخفض الإنسان وتضعه، وتعلوهُ وتفرعه حتى يخضع لها ويخنع لما يتسداه منها كان ذلك من مواضع (على)؛ ألا تراهم يقولون: هذا لك وهذا عليك؛ فتستعمل (اللام) فيما تؤثره، و(على) فيما تكرهه". (ابن جني، دت، ص 270، 271)

وقال ابن عطية (ت 546هـ):" وقوله تعالى: ﴿**لَهَا مَا كَسَبَتْ**﴾ يريد من الحسنات، ﴿**وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ**﴾ يريد من السيئات، قاله السدي وجماعة من المفسرين، لا خلاف في ذلك... وجاءت العبارة في الحسنات بـ (لها) من حيث هي مما يفرح الإنسان بكسبه ويسر بها فتضاف إلى ملكه، وجاءت في السيئات بـ (عليها) من حيث هي أوزار وأثقال ومتحملات صعبة. وهذا كما تقول: لي مالٌ وعليّ ديْن". (ابن عطية، 2001م، ص 393)

ويرى الإمام الألوسي في هاته الآية بأنّ المعنى على تقدير حذف مضاف هو (ثواب) في الأول و(عقاب) في الآخر، ومُبيّنُ (ما) الأولى الخير لدلالة (اللام) الدالة على النفع عليه، ومُبيّنُ (ما) الثانية الشرّ لدلالة (على) الدالة على الضر عليه. (الألوسي، دت، ص 69)

والملاحظ أنّ مجيء (اللام) مع الشيء النافع ومجيء (على) مع الشيء الضار في الآية الكريمة السابقة هو من المسائل المطردة في الأسلوب القرآني، فقد ورد ذلك في مواضع أخرى كما في قوله تعالى: ﴿**مَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا**﴾. (الإسراء،15) وقوله تعالى: ﴿**قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ**﴾. (هود، 40). وقوله عزّ وجلّ: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ**﴾. (الأنبياء،101). والملاحظ كذلك أنّ لاختلاف صيغتي الفعلين (كسب) و(اكتسب) في الآية الكريمة السابقة أثر في اختلاف المعنى ذلك أنّ كل عدول عن صيغة إلى أخرى يصاحبه حتما عدول عن معنى إلى آخر إلّا إذا كان ذلك لغة. (فاضل السامرائي، 2007، ص6)

وإذا كان معنى الكسب والاكتساب واحدا عند كثير من أهل اللغة وقد جاء القرآن الكريم بذلك في آيات كثيرة. كما في قوله تعالى: ﴿**كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ**﴾. (المدثر 38). وقوله تعالى: ﴿**وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا**﴾. (الأنعام، 164). وقوله سبحانه: ﴿**بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ**﴾. (البقرة،81). وقوله تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا**﴾. (الأحزاب، 58)، فإنّ مِن العلماء مَن فرّق بين معنيي الفعلين وقال بأنّ الاكتساب أخص من الكسب لأنّ الكسب إما أن يكون لنفسه أو لغيره. وأما الاكتساب فلا يكون إلا لنفسه... فإن قلت: لمَ خص الخير بالكسب والشر بالاكتساب؟ قلت: في الاكتساب اعتمال، ولما كان الشر مما تشتهيه النفس وهي منجذبة إليه، وأمارة به كانت في تحصيله أعمل وأجدّ، فجعلت لذلك مكتسبة فيه، ولما لم تكن كذلك في باب الخير، وصفت بما لا دلالة فيه على الاعتمال. (الزمخشري، 1998، ص 520، وأبو حيان، 1993، ص 382، 383)

4. في مجيء حرف الجرّ (عن) بمعنى (على) و(مِن):

- في قوله تعالى: ﴿**وَمَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَنْ نَفْسِهِ**﴾. (محمد، 38) فقد ذكر ابن هشام في المغني لـ (عن) ثلاثة معان: أحدها المجاوزة، نحو: سافرت عن البلد، ورغبتُ عن كذا. والثاني: البدل، نحو: ﴿**وَ اتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ...**﴾. (البقرة، 48).

والثالث: الاستعلاء، واستشهد بهذه الآية: ﴿**وَمَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَنْ نَفْسِهِ**﴾ أي: يبخل على نفسه. (ابن هشام، 1991، ص 168) وقيل: (عن) هنا على أصلها لإفادة معنى المجاوزة، أي يبعد الخير عن نفسه بالبخل. أو لا يتعدى ضرر بخله إلى غير نفسه. (الزمخشري، 1998، ص 1023)

وقيل الأصل في الفعل (بخل) أن يتعدى بحرف الجرّ (الباء) كما في قوله تعالى: ﴿**سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**﴾. (آل عمران، 180). وقوله تعالى: ﴿**فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ**﴾. (التوبة، 76)

ويرى الألوسي أنّ العلّة في تعدّي الفعل (يبخلُ) بـ (عن) في قوله تعالى: ﴿**وَمَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَنْ نَفْسِهِ**﴾ لأنه لا يتعدى ضرر بخله إلى غير نفسه، يقال: بخلت عليه، وبخلت عنه لأنّ البخل فيه معنى المنع ومعنى التضييق على من مُنع عنه المعروف والإضرار فناسب أن يُعدى بـ (من) للأول، وبـ (على) للثاني. وظاهر أنّ من منع المعروف عن نفسه فإضراره عليها فلا فرق بين اللفظين في الحاصل. (الألوسي، دت، ص 82)

- في قوله تعالى: ﴿**ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ**﴾. (الأعراف، 17). الملاحظ في الآية الكريمة أنّ الفعل (أتى) تعدى بـ (من) في المرة الأولى وبـ (عن) في المرة الثانية ولم يأت على نسق واحد، والمعروف أنّ من معاني (من) ابتداء الغاية، ومن معاني (عن) إفادة المجاوزة. قال سيبويه: "أما (مِن) فتكون لابتداء الغاية في الأماكن، وذلك قولك: من مكان كذا وكذا إلى مكان كذا وكذا. وتقول إذا كتبت كتابا: من فلان إلى فلان. فهذه

الأسماء سوى الأماكن بمنزلتها". (سيبويه، 1988، ص224) ولما كان الأمر كذلك فإنّ قوله تعالى: ﴿**ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ**﴾ يعني أنّ ابتداء إتيان إبليس اللعين كان من تينك الجهتين.

وأمّا (عن) فهي لإفادة المجاوزة، وذلك أنك تقول: أطعمه عن جوع، جعل الجوع منصرفا تاركا له قد جاوزه... وتقول: أضربتُ عنه، وأعرضتُ عنه، وانصرفَ عنه، إنما تريد أنه تراخى عنه وجاوزه إلى غيره. (سيبويه، 1988، ص 226، 227) ولما كانت (عن) تفيد المجاوزة فمعنى ذلك أنّ إتيان إبليس – لعنه الله - هنا كان منحرفا بهما عن طريق الحق ومتجاوزا لهما.

وتوضيح هذا كما في قوله تعالى: ﴿**قَالُوا إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ**﴾. (الصافات، 28) أي: كنتم تأتوننا من ناحية الخير أو الدين فانحرفتم بنا عنه، وصددتمونا عن الهدى، فجاءت (عن) مجسدة لهذا التجاوز عن سبل الرشاد والزيغ عن طريق الحق. ولو قال تأنوننا من اليمين ـ هنا ـ لما أفاد هذا المعنى. (محمد الأمين الخضري، 1989، ص 323)

وقال أبو حيان: إنما خصّ بين الأيدي والخلف بحرف الابتداء (من) الذي هو أمكن في الإتيان، لأنهما أغلب ما يجيء العدو منهما فينال فرصته، وقدم بين الأيدي على الخلف لأنها الجهة التي تدل على إقبال العدو وبسالته في مواجهة قرنه غير خائف منه، والخلف من جهة غدر ومخاتلة وجهالة القرن بمن يغتاله ويتطلب غرته وغفلته. وخصّ الأيمان والشمائل بالحرف الذي يدل على المجاوزة (عن)، لأنهما ليستا بأغلب ما يأتي منهما العدو، وإنما يتجاوز إتيانه إلى الجهة التي هي أغلب في ذلك. (محمد الأمين الخضري، 1989، ص 324)

وبيان هذا عند الألوسي أنّ (مِن) للاتصال و(عن) للانفصال، وأثر الشيطان في قوتي الدماغ حصول العقائد الباطلة كالشرك والتشبيه والتعطيل وهي مرتسمة في النفس البشرية متصلة بها، وفي الشهوة والغضب حصول الأعمال

السيئة الشهوانية والغضبية وهي تنفصل عن النفس وتنعدم، فلهذا أورد في الجهتين الأوليين (من) الاتصالية، وفي الأخيرين (عن) الانفصالية. ثم أضاف – رحمه الله - قولا آخر وهو: أنّه خصّ اليمين والشمال بـ (عن) لأن ثمة ملكيْن يقتضيان التجاوز عن ذلك. لذا خصت هاتان الجهتان بالحرف (عن) لإفادة معنى البعد لأنّ الشيطان اللعين يتباعد عن كل مكان يتواجد فيه المَلَك. (الألوسي، دت، ص 96)

5. في مجيء حرف الجرّ (في) بمعنى (على) و (اللام):

(في) حرف جرّ الأصل فيه إفادة معنى الظرفية على سبيل الحقيقة نحو قوله تعالى: ﴿**وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ**﴾. (البقرة،202). أو على سبيل المجاز نحو قوله سبحانه: ﴿**وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ...**﴾. (البقرة،179). ويجيء الحرف (في) لإفادة معانٍ أخرى منها معنى الحرف (على) ومعنى (اللام). (المرادي، 1992، ص 250)

- ففي قوله تعالى: ﴿**وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ**﴾. (طه، 71). ذهب الكوفيون ومن وافقهم إلى أنّ (في) بمعنى (على)، أي: لأصلبنّكم على جذوع النّخل وحُجتهم في ذلك أنّ الصّلب يكون على الجذوع لا فيها. (أبو عبيدة معمر بن المثنى، دت، ص23) واستشهدوا على مجيء (في) بمعنى (على) بقول القائل:

وهم صلبوا العبديّ في جذع نخلةٍ ... فلا عطستْ شيبانُ إلّا بأجدعا.

لأنه من المعلوم أنه لا يُصلب في داخل جذع النخلة وقلبِها. وإنما يُصلب على جذعها. (ابن جني، دت، ص 313)

وقد بيّن الإمام الزركشي (ت 794هـ) أنّ (في) تأتي بمعنى (على) كما في قوله تعالى: ﴿**حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ**﴾. (يونس، 22) أي: على الفلك، بدليل قوله تعالى: ﴿**فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلْكِ**﴾. (المؤمنون، 28). فقوله: ﴿**وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ**﴾ لأنّ الجذع للمصلوب بمنزلة القبر للمقبور فيه؛

لذلك جاز أن يقال: (في). وقيل: إنما آثر لفظة (في) للإشعار بسهولة صلبهم لأنّ (على) تدل على نبوّ يحتاج فيه إلى تحريك إلى فوق. (الزركشي،2004، ص303)

هذا ويرى بعضهم أنّ (في) هنا ليست بمعنى (على) وإنما هي على أصلها في إفادة معنى الظرفية، ووجه ذلك أنه شبه تمكن المصلوب في الجذع بتمكن الشيء الموعى في وعائه، ودلّت (في) على إبقائهم على جذوع النخل زمنا طويلا؛ فشبه استمرارهم على هذه الحال وهم على الجذوع باستقرار المظروف في الظرف المشتمل عليه. فصار الجذع للمصلوب عليه - حينئذ - بمثابة القبر للمقبور فيه على سبيل المجاز. (الألوسي، دت، ص231.) وقد أفادت (في) هنا إضافة إلى معناها الأصلي (الظرفية) معنى (الاستعلاء)، وما كانت تلك الصورة وذلك المعنى ليتحقق لو جيء بالحرف (على) بدل (في) فقال: (لأصلبنّكم على جذوع النخل).

ويظهر الفرق واضحا جليا في مجيء حرف الجرّ (في) بدل (على) في قوله تعالى: ﴿**قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَ إِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ**﴾. (سبأ،24)

قال الزمخشري معلقا عن قوله: ﴿**وَ إِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ**﴾. " فإن قلت: كيف خُولف بين حرفي الجرّ الداخلين على الحق والضلال؟ قلتُ: لأنّ صاحب الحق كأنه مستعل على فرس جواد يركضه حيث شاء، والضال كأنه منغمس في ظلام مرتبك فيه لا يدري أين يتوجه". (الزمخشري، 1998م، ص 122)

وقال أبو حيان: وجاء في الهدى بـ (على) لأنّ صاحبه ذو استعلاء وتمكُّن ممّا هو عليه يتصرف حيث شاء. وجاء في الضلال بـ (في) لأنه منغمس في حيرة، مرتبك فيها، لا يدري أين يتوجه. (أبو حيان، 1993، ص 268)

ولم يختلف الألوسي عن سابقيه في سبب مجيء الهدى بـ (على) والضلال بـ (في)، يقول: وأدخل (على) على الهدى للدلالة على استعلاء صاحبه وتمكنه

واطلاعه على ما يريد كالواقف على مكان عال، أو الراكب على جواد يركضه حيث شاء، و(في) على الضلال للدلالة على انغماس صاحبه في ظلام حتى كأنه في مهواة مظلمة لا يدري أين يتوجه. (الألوسي، دت، ص 140، 141) فناسب مجيء كلّ حرف الحال التي يكون عليها صاحبها، وهذا من الدّقة العجيبة لاستعمال الألفاظ في هذا الكلام الإلهي المعجز.

- في قوله تعالى: ﴿**إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ**﴾. (التوبة، 60)

تتحدث هذه الآية الكريمة عن مصارف الزكاة؛ وهم الأصناف الثمانية الذين تدفع إليهم تلك الأموال، والملاحظ في سياق الآية الكريمة أنّه خصّ الأصناف الأربعة الأولى بـ (اللّام) الدالة على الاختصاص والتملك؛ فقال سبحانه: ﴿**إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ**﴾، ثم خصّ الأصناف الأربعة الأخيرة بـ (في) الدالة على الظرفية؛ فقال سبحانه: ﴿**وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ**﴾.

والسبب في العدول عن (اللام) إلى (في) في الأصناف الأربعة الأخيرة في هاته الآية الكريمة – كما يراه الزركشي – هو للإيذان بأنهم أكثر استحقاقا ممّن سبق ذكره باللام؛ لأنّ (في) للوعاء، فنبّه باستعمالها على أنهم أحقاء بأن يجعلوا مظنة لوضع الصدقات فيهم؛ كما يوضع الشيء في وعائه مستقرا فيه. وفي تكرير حرف الظرف داخلا على ﴿**سَبِيلِ اللَّهِ**﴾ دليل على ترجيحه على الرقاب والغارمين. (الزركشي، 2004، ص175، 176. والزمخشري، 1998، ص 439)

وقد وافق الألوسي ما ذهب إليه الزركشي في سبب مجيء (في) بدلا من (اللام) في المصارف الأربعة الأخيرة بأنه للإيذان بأنّ هؤلاء أكثر استحقاقا للصدقة ممن سبق ذكرهم لما في الحرف (في) من معنى الظرفية المنبئة عن إحاطتهم بها،

وكونهم محلّها وأكثر استحقاقا لها، وعليه فاللّام لمجرد الاختصاص. ثم يضيف: وثمة سر آخر هو أظهر وأقرب وذلك أنّ الأصناف الأوائل مُلاك لما عساه أن يُدفع إليهم وإنما يأخذونه تملكا فكان دخول (اللام) لائقا بهم، وأما الأربعة الأواخر فلا يملكون لما يصرف نحوهم بل لا يُصرف إليهم ولكن يُصرف في مصالح تتعلق بهم، فالمال الذي يُصرف في الرقاب إنما يتناوله السادة والمكاتبون أو البائعون فليس نصيبهم مصروفا إلى أيديهم حتى يعبر عن ذلك باللّام المشعرة بملكهم وإنّما هو محال لهذا الصرف والمصلحة المتعلقة به، وكذلك الغارمون إنما يُصرف نصيبهم لأرباب دُيونهم تخليصا لذممهم لا لهم. وأما سبيل الله فواضح فيه ذلك، وأما ابن السبيل فكأنه كان مندرجا في سبيل الله، وإنما أُفرد بالذكر تنبيها على خصوصيته، مع أنه مجرد من الحرفين جميعا وعطفه على المجرور باللّام ممكن، ولكنه على القريب منه أقرب والله أعلم. (الألوسي، دت، ص 124)

6. في مجيء حرف الجرّ (من) بمعنى (الباء) و(في):

(مِن) حرف جرّ يكون زائدا، وغير زائد، وهذا الأخير له نحو أربعة عشر معنى؛ منها: ابتداء الغاية في المكان نحو قوله تعالى: ﴿**مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى**﴾. (الإسراء،1)، وكذا فيما نُزّل منزلة المكان نحو: مِن فُلان إلى فلان. وفي الزمان عند الكوفيين كقوله تعالى: ﴿**مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ**﴾. (التوبة،109). ومن معانيها أيضا: التبعيض، نحو: (**مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللهُ**﴾. (البقرة،253) وعلامتها جواز الاستغناء عنها بـ (بعض). ومجيئها للتبعيض كثير. ومن معاني (مِنْ) كذلك بيان الجنس، نحو: ﴿**فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ...**﴾. (الحج،30).

ويذكر ابن هشام أنّ (مِن) تأتي على خمسة عشر وجها أشهرها والغالب عليها معنى ابتداء الغاية، وسائر معانيها راجعة إليه، وتقع لهذا المعنى في غير الزمان، نحو قوله تعالى: ﴿**سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ**﴾.

(الإسراء،1). وقوله: ﴿إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ﴾. (النمل،30). (ابن هشام، 1991، ص349)

ومن معاني (مِنْ) موافقة (الباء)، نحو: (المرادي، 1992، ص 308، ... 314)

- قوله تعالى: ﴿وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾. (الشورى،45) فقد ذهب عدد من المفسرين إلى أنّ (من) في قوله تعالى: ﴿يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾ هي بمعنى (الباء)، أي: (بطرفٍ) حكاه البغوي عن يونس. وقال: إنما قال: ﴿مِنْ طَرْفٍ﴾ لأنه لا يصح عنه، وإنما نظره ببعضها واستدل على ذلك بقوله تعالى: ﴿يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾. (الرعد،11) أي بأمر الله. وقوله سبحانه: ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ﴾. (القدر،4). (الزركشي، 2004، ص420) أي بكلّ أمر.

ويجوز أن تكون (من) في قوله: ﴿مِنْ طَرْفٍ﴾ لابتداء الغاية، وأن تكون تبعيضية، وأن تكون بمعنى (الباء)، وبكل قد قيل. (السمين الحلبي، دت، ص564)

ويرى الألوسي أنّ (من) في قوله تعالى: ﴿يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾ تحتمل وجهين؛ الأول: أن تكون ابتدائية، والمعنى: أنّ الناظر يبتدئ نظره من تحريك أجفانه يسترق النظر، كما يرى المصبور إلى السيف، وكما ينظر الناظر إلى ما يكره فإنه لا يقدر أن يفتح أجفانه عليه ويملأ عينيه منه كما يفعل في نظره إلى ما يُحبّ، والثاني: أن تكون (من) بمعنى (الباء)، والمعنى حينئذ: ينظرون بطرف خفيّ. (الألوسي، دت، ص51)

وقد اقتضت بلاغة النظم في هذا الموضع استعمال (مِن) دون (الباء) لتشير إلى أنّ الظالمين لا يستطيعون أن يُحركوا الطرف، وإنما ينظرون ببعضه، وبالقدر الذي يريهم هول العذاب، وذلك ينسجم تمام الانسجام مع قوله: ﴿خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ﴾. حتى أنّهم من فرط ذلهم لا يستطيعون رفع أبصارهم، ولا

النظر إلّا خلسة وببعض الطرف، يدل على ذلك وصف الطرف بالخفاء، شأن المستحيي من رفع بصره، فأين هذا من معنى (الباء) الذي يدل على اتّخاذ الطرف آلة يحركونه لرؤية الأشياء دون ما أُشير إليه من معان وشى بها حرف الابتداء. (محمد الأمين الخضري، 1989، ص 356، 357)

7ـ خاتمة

وختاما نخلص إلى القول بأنّ:

- التناوب بين حروف الجرّ من المسائل الشائعة والمطردة في كلام العرب الفصيح وفي القرآن الكريم.

- التناوب بين حروف الجرّ من أشهر المسائل المختلف فيها بين النحاة والدارسين، ففي حين يذهب البصريون إلى عدم جواز التناوب والقياس عليه، يذهب الكوفيون إلى جوازه ويتوسعون فيه.

- كثيرا ما تأتي حروف الجرّ على غير معناها الأصلي في القرآن الكريم فتنوب عن بعضها في الكلام الذي ترد فيه لتضيف معان جديدة يقتضيها السياق العام الذي ترد فيه الآيات.

- الإمام الألوسي – رحمه الله تعالى– من القائلين بتناوب حروف الجرّ، نلمس ذلك في تفسيره لكثير من الآيات، ومن ذلك أنّ (مِنْ) في قوله تعالى: ﴿**يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ**﴾ تحتمل وجهين:

الأول: أن تكون ابتدائية، والمعنى: أنّ الناظر يبتدئ نظره من تحريك أجفانه يسترق النظر.

والثاني: أن تكون (مِنْ) بمعنى (الباء)، والمعنى حينئذ: ينظرون بطرف خفيّ...

8. قائمة المصادر المراجع:

1- الألوسي أبو الفضل شهاب الدين، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، د ط، د ت.

2- ابن جني أبو الفتح عثمان، الخصائص، تحقيق محمد علي النجار، المكتبة العلمية، مصر، د ط، د ت.

3- أبو الحسن علي بن عيسى الرماني، معاني الحروف، تحقيق الشيخ عرفان بن سليم العشا حسونة، المكتبة العصرية، صيدا- بيروت، لبنان، ط1، 1426هـ- 2005م.

4- أبو حيان الأندلسي، البحر المحيط، تعليق عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوض، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط1، 1413هـ- 1993م.

5- الراغب الأصفهاني، مفردات ألفاظ القرآن، تحقيق صفوان عدنان داوودي، دار القلم، دمشق سورية، ط4، 1430هـ- 2009م.

6- الزركشي بدر الدين محمد بن عبد الله، البرهان في علوم القرآن، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، مكتبة التراث، القاهرة، مصر، د ط، د ت.

7- الزمخشري، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، تحقيق عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد عوض، مكتبة العبيكان، الرياض، المملكة العربية السعودية، ط1، 1418هـ- 1998م.

8- السمين الحلبي، الدّر المصون في علوم الكتاب المكنون، تحقيق أحمد محمد الخراط، دار القلم، دمشق سورية، د ط، د ت.

9- سيبويه أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر، الكتاب، تحقيق عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر، ط2، 1402هـ- 1982م.

10- أبو عبيدة معمر بن المثنى، مجاز القرآن، مكتبة الخانجي، القاهرة مصر، دط، دت.

11- ابن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تحقيق عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط1، 1422هـ- 2001م.

12- فاضل صالح السامرائي، معاني النحو، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، عمان الأردن، ط1، 1420هـ- 2000م.

13- فاضل صالح السامرائي، معاني الأبنية في العربية، دار عمار للنشر والتوزيع، عمان الأردن، ط2، 1428هـ- 2007م.

14- المرادي الحسن بن القاسم، الجنى الداني في حروف المعاني، تحقيق فخر الدين قباوة ومحمد نديم فاضل، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1413هـ- 1992م.

15- محمد الأمين الخضري، من أسرا حروف الجر في الذكر الحكيم، مكتبة وهبة، القاهرة مصر، ط1، 1409هـ- 1989م.

16- محمود أحمد الصغير، الأدوات النحوية في كتب التفسير، دار الفكر، دمشق سورية، ط1، 1422هـ- 2001.

17- ابن هشام الأنصاري، مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، د ط، د ت.